

كيف أحتمي من العقارب؟!

(1)

يعمُّ الناسَ شعورٌ بالدهشة والخوف، بل والسخط، من الانتشار الواسع للعقارب، التي تهدد (بوينس آيريس)، المدينة التي كانت، حتى وقت قريب، خالية منها تمامًا.

ويلجأ الأشخاصُ محدودو الأفق إلى أسلوب دفاع تقليدي للغاية ضد العقارب، ألا وهو استخدام السموم. أما ذوو المُخيلة الأنشط، فإنهم يحشدون في منازلهم الضفادع والعظاءات، على أمل أن تتكفل بالتهام العقارب. ويبوء الفريقان بفشل صارخ؛ فالعقارب ترفض رفضًا قاطعًا ابتلاع السموم، بينما تمتنع الزواحف عن ابتلاع العقارب. ولا ينجح الفريقان، بافتقارهما إلى الكفاءة، وبتعجلهما، إلا في شيء واحد، هو أن تتفاقم الكراهية التي تحملها العقاربُ للبشر أجمعين، وأكثر من ذلك، إن كان بالإمكان.

أما أنا، فلي طريقة مغايرة، حاولتُ أن أنشرها فلم أنجح، وقد أسئى فهمي، كما هو الحال مع كل الرواد. وأعتقدُ، بكل تواضع، أن طريقي ليست هي الأفضل، فقط، بل الوحيدة الممكنة لمقاومة العقارب، مبدؤها الأساسي

يشتمل على تجنب المواجهة المباشرة، والانخراط في مناوشات وجيزة، وإن كانت محفوفة بالمخاطر، كما تشتمل على مداراة عدائنا للعقارب.

(وبطبيعة الحال، فأنا أعلم أنه يجب على المرء أن يلتزم الحذر في سعيه، كما أعلم أن لدغة العقرب مهلكة. وإذا وضعتُ نفسي في رداء الغوص فسأكون بمأمن من العقرب، وهذا صحيح، وصحيح أيضًا، بنفس الدرجة، أنني إن فعلتُ ذلك فإن العقارب ستتيقن تمامًا من أنني أخافها. وأنا أخافها بشدة، إلا أنه ينبغي على المرء ألا يفقد رباطة جأشه).

وثمة تدبير أوليٍّ له نجاعته إن خلا من التركيز على العنف، ومن الانفعالات الدرامية، ويتضمّن خطوتين بسيطتين. أولاًهما، ربطُ رجليّ بنطالي بأشرطة مطاطية مشدودة للغاية، لمنع العقارب من الزحف إلى ساقيّ. والثانية، التظاهرُ بأنني أعاني برّدًا شديدًا، فأرتدي زوجًا من القفازات الجلدية، طول الوقت، وبذلك أتجنب تعريض اليدين للدغ.

(أشار نفرٌ من المُحِبِّين إلى العيوب التي تنضوي عليها هذه الطريقة في فصل الصيف، دون أن يعترفوا بمزاياها العامة التي لا يمكن إنكارها).

أما الرأس، فينبغي في كل الأحوال تركُّها مكشوفةً، فهذه أفضلُ طريقة تُظهرُ بها للعقارب صورتنا كشجعان ومتقائلين. وإلى جانب ذلك، فليس من خصال العقارب أن تُسقط أنفسها من السقف على وجه الإنسان، وإن كانت تفعل ذلك في بعض الأحيان.

(وذلك ما حدث بصورة من الصور لجارتي الراحلة، التي كانت أمّا لأربعة أطفال صغار لطاف، أصبحوا الآن يتامى. ومما يزيد الطينَ بلّةً أن مثل هذه الحقائق تنتهي إلى نظريات خاطئة، لا تفعل إلا أن تؤدي إلى زيادة صعوبة ومشقة مكافحة العقارب. والواقع، أن الزوج الباقي على قيد الحياة، يؤكد - دون أساس علمي كافٍ - أن العقارب الستة كانت قد انجذبت إلى لون عيني الضحية الأزرق الحاد، ويقدمُ كدليل وإه على هذا الزعم المتسرع، حقيقة أن العقارب قد وزعت، من قبيل المصادفة التامة، لدغاتها في مجموعتين، بواقع ثلاث لدغات لكل بؤبؤ عين. وأنا أعتقد بأمانة أن ذلك ليس أكثر من تخريفات تهيأت للعقل الرعديد لذلك الشخص البائس).

(2)

ومن المهم، عندما يتعلق الأمرُ بالدفاع، التظاهر بعدم إدراك وجود العقارب، ونحن بصدد مهاجمتها. وربما تبدو المسألة كما لو كانت من قبيل المصادفة، لكنني قد تمكنْتُ، في هدوء بقدر ما أستطيع، من قتل ما يتراوح بين ثمانين ومائة عقرب، كل يوم. وأنا أمضي في ذلك على نحوٍ يحدوني الأمل في أن يُتَبَّعَ ويُستكمل، قدر الإمكان، من أجل بقاء الجنس البشري.

وكنْتُ أجلس في المطبخ، وقد تملكنتي الحيرة، ورحتُ أقرأ الصحيفة، ومن حين لآخر، أنظرُ في ساعتِي، وأغمغم لنفسي بصوت عالٍ بما يكفي لتسمعه العقاربُ:

"اللعة!. لماذا لم يتحدث الشيطانُ (بيريز)؟". إن ما به من انعدام ثقة أمر يزعجني، ويعطيه العذر ليسحق قدميَّ بغضبٍ فوق الأرضية عدة مرات، فأقتل بهذه الطريقة ما لا يقل عن عشرة من العقارب التي لا حصر لها، وتغطي الأرض.

إنني أكرّر، من فترة لأخرى، تعبيري عن نفاد الصبر، فأتمكن بهذه الطريقة من قتل عدد كبير بالفعل. ولا يعني ذلك أنني أقل من عدد العقارب، فلا حصر لها، وتغطي بالكامل كلاً من السقف والجدران.

وكنت أتعرض، من حين لآخر، لهجمات الهستيريا، وألقي ببعض الأجسام الثقيلة على الجدار، وأنا حريص على الاستمرار في لعن بيريز، الذي يأخذ وقتاً طويلاً ليتصل بي.

ومن المخجل أنني حطمتُ بالفعل عدة أطقم من الأكواب والأطباق، وأنني أعيشُ وسط أواني ومقالي منبعجة؛ غير أن للدفاع عن النفس ضد العقارب ثمنًا مرتفعًا.

وأخيرًا، ها هو شخصٌ يهاتفني، فأصيح (إنه بيريز)، وأهرول إلى الهاتف. ومن الطبيعي، مع ما وصلتُ إليه من قلقٍ وتعجّلٍ ألاّ ألاحظ الآلاف والآلاف من العقارب وقد افترشت الأرضية في هدوء، وتتدفق عند قدميَّ، ولها صوتٌ هلاميٌّ خشن، كصوت بيضة تتكسر.

وفي بعض الأحيان - وليس أكثر من بعض الأحيان، فليس من دأبي الإفراط في اللجوء إلى ذلك - أتعثر، فأسقطُ بكامل طولي، فيترتب على

ذلك أن تتسع مساحةُ تأثيري، ويتزايد بالتالي عدد العقارب الميتة. وعندما أعود فأقف على قدمي، أجد ملابسي وقد ازدانت كلها بجثث لزجة لعدد من العقارب الكبيرة. إن التخلص منها، عقرباً بعد عقرب، مهمة صعبة، لكنها تتيح لي أن أذوق طعم انتصاري.

(3)

وأود الآن أن أتطرقُ إلى استطراد قصير، أربط به نادرةً، تنويرية بحد ذاتها، عن حادثة وقعت لي منذ بضعة أيام، ولعبتُ - دون قصد مني - دوراً بطولياً فيها، إن كان لي أن أقول ذلك عن نفسي.

فعندما حان وقتُ تناول وجبة الغداء، وجدتُ المائدة مغطاة تماماً، كما هي العادة، بالعقارب. فضيات المائدة مغطاة بالعقارب. الموقد مغطى بالعقارب. تحليتُ بالصبر، ورحتُ - باستكانةٍ، وحرصٍ على حماية عيني - أبعدُها تدريجياً، وألقي بها على الأرض.

ونظراً لأن مكافحة العقارب تستغرق الجانب الأكبر من وقتي، فقد قررتُ أن أعدّ لنفسي وجبة سريعة، عبارة عن بضع بيضات مقلية. ولما جلستُ لأتناولها، كنت طول الوقت أزيحُ العقارب، وعلى نحو خاص، بعض ما تسلق طاولة الطعام من عقارب جريئة، أو تلك التي كانت تتمشى على رُكبتَي، عندما سقط، أو قفز، من السقف إلى طبق طعامي عقرب قوي ومكتنز بشكل لافت.

حلّ بي رعبٌ أسقطُ معه سكينتي وشوكتي. كيف لي، إذن، أن أفسر هذا السلوك؟. هل حدث ذلك من قبيل المصادفة؟. أهو هجومٌ عليّ أنا شخصياً؟. أترأه اختباراً لي؟. ولبثتُ في حيرة لبعض الوقت. فماذا كانت نوايا ذلك العقرب تجاهي؟.

ولأنني جندي متمرس في المعركة ضد العقارب، فقد فهمت على الفور. إن العقارب تستهدف إرغامي على تعديل طريقة دفاعي، وجعلي أتحوّل إلى الهجوم. ولكنني كنت واثقاً جداً من فعالية استراتيجيتي؛ وما كانت لتقلح في خداعي.

ورأيتُ، وأنا أكبح جماح غضبي، أرجل العقرب السمكية، بما عليها من شعر، تتبّع في البيض، ورأيت جسمه وقد تشرّب باللون الأصفر؛ ورأيت الذيل السام يخفّ في الهواء، مثل بحار في سفينة غارقة يطلب النجدة. وبصورة موضوعية خالصة، كان صراع العقرب مع الموت مشهداً جميلاً؛ إلا أنه أصابني بشيء من الغثيان؛ وفكرتُ في إلقاء محتويات الطبق في المحرقة، وكدتُ أفعل ذلك؛ ولأنني لازلت أمتلك الكثير من قوة الإرادة، تمكنتُ من كبح جماح نفسي في الوقت المناسب.

ولو لم أفعل ذلك، لاستحققتُ كراهية وتوبيخ آلاف كثيرة من العقارب، التي كانت - بشكوكها المتجددة - تراقبني من السقف والجدران والأرضية والموقد والمصابيح، ولكان في ذلك ذريعة لها لأن تعتبر نفسها عُرضةً للهجوم؛ ولا أحد يدري ماذا يمكن أن يترتب على ذلك.

(4)

وخادعتُ نفسي فتظاهرتُ بأنني لم ألحظ العقرب الذي كان يناضل في طبقي، وأكلته مع البيض وأنا في حالة ارتباك، وقمت بمسح الطبق بقطعة من الخبز، حتى لا أترك ولو قطعة واحدة من العقرب والبيض. واتضح أن العقارب ليست بغیضة الطعم كما كنتُ أخشى. ربما كان مذاقها حامضي نوعاً ما، إلا أن ذلك ربما يكون مرده إلى حقيقة أن فمي كان لا يزال غير معتاد على تناول عقارب. وابتسمتُ بارتياح بعد آخر لقمة.

وتبيّن، فيما بعد، أن درقة العقرب، التي كانت أكثر جفافاً مما كنت أحب، قد تسببت لي في عسر هضم، فاخترتُ، بكياسة، أن أتناول زجاجة من مضاد عسر الهضم (ألكا سيلتيزير)، لكي لا أعدي على بقية العقارب. وتوجد بدائل أخرى لهذه الطريقة، إلا أنه من الضروري أن نأخذ في حسابنا أهمية المضي قُدماً ونحن نبدو غير مدرّكين لحضور العقارب، فضلاً عن وجودها؛ وهذا هو جوهر هذه الطريقة.

ومع ذلك، فإنني تنتهبنني بعض الشكوك؛ وأعتقد أن العقارب قد بدأت تتحقق من أن هجماتي لا تحدث عَرَضاً. فبالأمس، وعندما سقط وعاء الماء المغلي من يدي على الأرض، لاحظت أن ثلاثمائة أو أربعمائة عقرب كانوا يحدجونني، من باب الثلاجة، بنظرات وقحة، مرتابة موبّخة. وربما كان الفشل هو نهاية طريقتي؛ لكنني لا أستطيع، بالوقت الراهن، التفكير في طريقة أفضل أحتمي بها من العقارب.